الحب في الشرق والغرب

دني ده روجمون

لا بد لي من كلمة اوضح بها عنوان هذا المقال . ان الحب الذي سأتكلم عليه ليس هو ذلك « الشيء التافه » الذي تلمح اليه المهازل المسرحية التي كانت تمثل قبل وقوع الحرب العالمية الاولى ، ولا هو الحب الذي كان فلوبير يشوه كتابته (l'Hâmour) ليسخر منه ، ولا الحب الذي يكون موضوعاً للاحاديث التي تجري في اجتماعات اللهو والمرح وتزوّق وتوشّى بالنكات والنوادر . لا شك في ان هذا التنبيه هو من فضول الكلام ؛ بيد ان بعض ما وقع لي واختبرته بنفسي قد حملني على الاحتياط والحذر : فانه عندما ظهرت في امريكا ترجمة كتابي « الحب والغرب » بلغني ان مجلتين من خيرة المجلات قد رفضتا كل تعليق عليه لانهما اكتفتا بالنظر الى عنوانه فتبادر الى الذهن ما يمكن تأويله بما يلي : هذا ايضاً كتاب على الحب ! يضعه ايضاً كاتب فرنسي ! الحب ! دائماً الحب ! قد تخمنا من كل هذا ! ليس هذا بالشيء الجدي !

على ان الحب الذي سأتكلم عليه هو على غاية من الجدية . انه في نظري الظاهرة التي وسمت الثقافة الاوربية بأبرز طوابعها واخصها . فالشعر والرواية والمأساة والاوبرا قد انحدرت جميعها من هذه الظاهرة وعاشت بها وحافظت عليها حتى ايامنا هذه ، لا في النخبة المثقفة فحسب بل ايضاً في الاوساط الشعبية التي لا تلبث طويلا حتى تتأثر خطى الطليعة التي تشقّ وتعبّد في كل عصر طرقاً جديدة للشعور والتعبير .

والحال ان الظاهرة المعقدة التي يسمونها الحب في الغرب قد استمدت الكثير من اصولها التاريخية والادبية والروحية من المناطق التي اعتدنا تسميتها جملة « بالشرق الادنى » . والواقع ان هذا الحب قد ولد خلال القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر من التاريخ المسيحي في جنوبي فرنسا حيث التقى تياران انساب احدهما من آسيا الصغرى وايران والآخر من العالم العربي .

٤ حوار – ٢

ابدأ بوصف التلاقي الاول الذي ولدت منه فكرة هـذا الحب عندنا ، ثم احاول عرض أبرز نتائجه في جميع مناحي الحياة الاجتماعية ، وأتساءل في الختـام عن مستقبل الحب في عالمنا الجديد الآخذ في خلق التقنية وتعميمها في جميع اقطار الدنيا .

وارى ان من المنطق ان ابدأ بماضي هذا الحب الذي تشترك فيـه المسيحية والاسلام ويعدّ جزءاً منهما .

لا شك ان الكثيرين يعرفون العبارة التي قالها المؤرخ شارل سينيوبوس والتي طالمـا رددتها الافواه : « ان الحب من مخترعات القرن الثاني عشر » . وقد ظلت هذه العبارة تُحمل ، لثلاثين سنة خلت ، محمل التفكه ولا تثير الا ارتياباً عاماً في مدى صحتها ؛ فكانوا يقولون : « ماذا ؟ ألا يكون الحب عاطفة قديمة كقدم الجنس البشري ؟ ماذا كان الناس يصنعون اذاً قبل القرن الثاني عشر ؟ » هذا ما يتبادر الى الذهن ، غير ان الواقع قد فنده : فان لفظة الحب التي نعني بها نحن العاطفة والهوى لم تكتسب الا في القرن الثاني عشر هذا المعنى ، وذلك عندما ادخله الشعراء المتجولون (التروبادور) في شعرهم . هـذا الشعر الذي ظهر فجأة في جنوبي فرنسا وما لبث ان انتشر انتشاراً غريباً في القارة الاوربية ، لم يكن له ما يشبهه في الشعر الذي عرفه حتى ذلك الحين العالم القديم والعالم المسيحي ، فكأنه قد هبط من السماء ، حتى انه بقي زمناً طويلا وما من احد يتمكن من ايجاد صلة تصله بشيء سابق له . وعندما اخذت بالاهتمام به منذ عشرين سنة للكشف عن سره المدهش لم يكن لديّ اي دليل يركن اليه ولا اية نظرية بشأنه يعتمد عليها . اما العلم الرسمي في ذلك الحين فكأنه قطع قطعاً حاسماً بأن هذا السر لا حل له وانه يبقى الى الابد بغير حل . وراح ينعت بالخفة المنقّبين القلائل الذين يجازفون بابداء نظرية في هذا الصدد . وبالرغم من كل هذا فاني جازفت وكتبت « الحب والغرب » .

كان اول سؤال طرحته على نفسي : أيكون الشعر التروبادوري ، في مختلف اشكاله الثابتة الانيقة وفي مذهبه الجديد كل الجدة ، أيكون كما يزعم الاختصاصيون من مبتدعات بعض المشعبذين والشعراء المتجولين الذين لم يكونوا على شيء كثير من الثقافة ؟ فاذا كان الامر كذلك ، فكيف تمكن هذا الشعر من قلب مجرى شعورنا وتطوير فنوننا وتبديـل عاداتنا طوال قرون عديدة ؟ ألا يكون ، بعكس ذلك ، آية ثورة أعمّ من ثورة الشعر ،

كانت تتمخض بها في ذلك العصر النفسانية الاوربية ؟ فحاولت وضع جدول بمجمل الاحداث الروحية المهمة التي وقعت في القرن الثاني عشر ، فعثرت على ما يلي :

ـ على شكل للشعر جديد كل الجدة لم يكن من قبل ، ولد في اللانغدوك وظهر في قصائد غيوم ده بواتييه الاولى وما لبث ان احتذى هذا الشعر مئات من الشعراء . وكان هذا الشعر يمجد المرأة مع انها كانت قبل ظهوره مهملة او محتقرة ، وبات يشيد بذكرها ويدعوها « بالسيدة » ، جاعلا منها كفؤاً « للسيد » الذي يخضع له الفرسان ويطيعونه ، ويعارض الزواج الخالي من الحب والفجور والفسق ، بالتعبد للحب الذي يتغلب على ما يحول دونه والذي يوقّر المرأة ولا يأبه للروابط الاجتماعية .

ـ انتشرت في الوقت نفسه هرطقة ذات شأن عظيم في ايران وآسيا الصغرى ومرّت بالبلقان وايطاليا الشمالية وامتدت حتى شملت جنوبي فرنسا وتوطدت اركانها في البلاطات والقصور حيث كان الشعراء المتجولون ينشدون قصائدهم . وما هذي الهرطقة الا الهرطقة الكاثارية (١) او الالبيجوازية . اما مذهبها فكانمانوياً ، يعتبر النفس جزءاً من الانسان، خلقها اللهالحقّ وسجنت فيالجسد ، الذي هو الجزء الآخر من الانسان ، خليقةالشيطان؛ فعلى الروحانيين في عرف هذا المذهب ان يتعففوا وان يزهدوا في كل علاقة جسدية تؤدي الى الايلاد الذي يزيد في عدد النفوس الملقاة في الاجساد الخسيسة . وكان معظم اتباع هذه الهرطقة يرون من الصعب الاذعان لما تتقاضاه منالعفة التامة ، فيكتفونبالطعن في الزواج وبمدح انواع الحب التي تكون على شيء من المثالية ، ضؤلت او عظمت ، ويجيزون ضرباً من المغازلة التي لا تأتي بنتائج متطرفة لكنها لا تحول دون اللذة . فهذه الهرطقة تتوافق ومبدأ التعبد « للسيدة » و « النفس الملائكية » ، ان لم يكن توافقاً نظرياً فعلى الاقل في شؤون الحياة العملية . ومما لا التباس فيه هو ان النفس التي يتغنى بها الشعراء هي نفس نسائية .

ـ وتكاثرتعندئذ الهرطقاتفيايطاليا وفي المانيا المجاورة لنهر الرين وفيالفلاندر . وجميع هذه الهرطقات تتنكر للزواج وتقول بالوهية النفس وترى ان الجسد لما فيه من خساسة لا يحول دون الخلاص مهما أتى من الاعمال ، حتى ان احد الاساقفة الهراطقة قد

(١) كاثار لفظة من اصل اغريقي ، تعني الصفاء والنقاء ، ويقصد بها تطهير الروح من شوائب الجسد . وهذا ما يذكرنا باخوان الصفاء الذين كانوا على هذا المبدأ .

صرح بأن « لا خطيئة تحت السرّة » .

– وفي ايطاليا ظهر جواشيم ده فلور وبشّر بمجيء ملكوت ثالث يخلف ملكوت الآب وملكوت الابن ، وهو ملكوت الروح . وتبعه في ذلك قوم كثيرون .

– وفي باريس كان ابيلار ، اشهر ملافنة عصره ، يعيش وايلويز تلميذته عيشة حب جسدي روحي في وقت معاً ، لكن هذا الحب قد انتهى بفراق مؤلم ، ترهّبا على أثره وأقسما انهما يلتقيان بعد موتهما .

– وبعد قليل ظهرت في بريتانيا رواية « تريستان وايزلت » . كتبت هذه الرواية تحت تأثير الشعر التروبادوري ، وفيها وصف ممتع مثالي للحب – الهوى ، اي الحب الذي يقود المحبين الى موعد لقائهما الاخير في الموت .

– تجاه هذا الحب الجامح الذي انتشر وعمّ والذي كاد يكون حباً دينياً وبالتالي تشتم منه رائحة الهرطقة ، وتجاه التعبّد للمرأة المثالية ، لم يسع الكهنة والرهبان الا معارضة هذا المذهب بعقيدة وعبادة تتجاوبان وما تتوق اليه روح الجماعات . فأسس القديس برنارد ده كليرفو ، لمقاومة الكاثارية والهرطقات الاخرى القريبة منها ، رهبانية زهدية توحي لاول مرة بالحب الالهي .

– وفي الوقت نفسه ، اي في سنة ١١٤٠ ، انشأ كهنة ليون عيداً « للحبل بلا دنس » ، لسيدتنا العذراء سيدة الحب العذري المثالية . وما الرهبانيات الاخرى التي تكاثرت سوى نقائض « لمنظمات » الفروسية المنبثقة من الكورتيزية[1] ، الشعر العذري المنتشر في جنوبي فرنسا . ودعا الرهبان نفوسهم « بفرسان مريم » .

– ومن ميزات هذا العصر ميزة اخيرة تبدو لي مستقلة كل الاستقلال عن جميع الميزات التي ذكرتها : وهي ان قطعة الفرزان في لعبة الشطرنج (وتدعى بالفرنسية « السيدة ») قد اصبحت في القرن الثاني عشر أهم قطع هذه اللعبة واستعيض بها وحدها عن قطع الشاهات الاربعة التي كانت تسود سائر قطع الشطرنج .

---

(١) كلمة اسبانية يدل اصلها على بلاط الملوك والامراء ، ثم اطلقت على الشعر الغزلي الذي كان الشعراء المتجولون (التروبادور) ينشدونه في البلاطات بتمجيد ملكاتها واميراتها ممثلين وفاءهم وتعبدهم وخضوعهم لهن . ثم شمل هذا الشعر الغزل على مطلقه ، سوى انه لا يتناول الا العلاقات الروحانية بين المحبين ، مما يقابله عند العرب الهوى العذري ، غير انها اوسع مجالا واكثر تنوعاً . وما استعملنا « الهوى العذري » في هذا النص الا تساهلا .

هذا هو الوسط المتأجج الذي برز فيه الشعر التروبادوري ومذهبه الجديد في الحب . فكان القرن الثاني عشر من جراء ذلك مسرحاً لثورة اساسية غيّرت الثقافة الاوربية اخلاقياً وروحانياً ، وكانت غنائية الشعراء البروفانسيين عصارة هذا التغيّر .

فلو اعدنا الحب العذري (او « العفيف ») الى المكان الذي كان يحتله من هذا الوسط التاريخي في القرن الثاني عشر ، لظهرت لنا بجلاء اوفر الاسباب التي يسرت له هذا النجاح الباهر . فان الشعراء المتجولين قد حملوا اليه اللغة اللازمة للتعبير عما كانت تتوق اليه النفس في القرون الوسطى ، فأعربت عن هذا التوق جهاراً في لغة صافية مستقاة من بيان الشعر العذري .

على انه بقي هناك امر غامض ، وهو مصدر هذا البيان البديع الذي جاء في حينه مجهّزاً بجميع صيغه ، متأهباً للاجابة عن ذلك التوق الذي لم يكن قد وجد شكلا له ، فظل مبهماً ، غامضاً ، متلجلجاً .

لعشرين سنة خلت كان هذا اللغز مغلقاً ، اما اليوم فقد وجدنا له حلا : فان مفتاح حله هو الشعر العربي الذي ذاع في القرن الحادي عشر في الاندلس ، وخاصة في قرطبة التي كانت مهداً لمذهب شعري نبغ فيه ابن حزم وابن قزمان ثم المعتمد الاشبيلي فاشتهروا في العالم العربي وامتد صيتهم حتى بغداد . فمن هذا الشعر العربي قد استعار غيوم ده بواتييه وتلاميذه الصيغ والمواضيع والتقفية حتى وانغام اغانيهم . وقد ايّدت هذه النظرية الابحاث التاريخية والادبية والفلسفية العديدة التي حملت الينا في خلال السنوات العشرين الاخيرة الادلة والبراهين المفصلة الحاسمة . ولا غرابة ، فان غيوم ده بواتييه قد رحل الى الشرق في حملة صليبية واقام فيه زمناً طويلا وتزوج امرأة اسبانية هي ارملة ملك من ملوك ارغون ووريثة كونتيّة تولوز . فيكون والحالة هذه قد اقتبس فنه من شعراء العرب الذين كانوا على مذهب قرطبة الشعري . وان لم نقل انه اقتبس فن الحب ، فنقول على الاقل انه اقتبس طرق التعبير عنه ، وهذا في المنزلة ذاتها من الاهمية .

كل هذا قد اصبح الآن معروفاً لدى الاوساط العلمية المختصة . اما الشيء الذي تنقص معرفتها به والذي اريد جلاءه ، فهو ان شعر الحب عند عرب الاندلس كان متصلاً اتصالا حميماً بالمذهب الصوفي الذي ولد في العراق والذي يمثله في القرن الثاني عشر الحلاج وروزبهان الشيرازي والسهراوردي الحلبي ، ثم ابن عربي في اسبانيا . جميع هؤلاء الصوفيين

قد لجأوا الى صيغ الشعر المنظوم في الحب الدنيوي للاعراب عن حبهم الإلهي ، فعدّ هذا ضرباً من البدع افضى بالكثيرين منهم الى الهلاك . وعليه تكون المطابقة بين الشعر الاسلامي او بين الموشحات والازجال وبين شعر شعراء اللانغدوك او « الكورتيزية » قد ازدوجت بمطابقة اخرى هي المطابقة بين بدعة الصوفيين وبدعة الكاثار . والواقع ان مذهب الكاثار متفرع من المانوية التي اثرت تأثيراً بعيداً في المذاهب الصوفية ، فتكون المانوية الايرانيـــة اذاً اصلا مشتركاً بين البدعتين اللتين ظهرتا في المسيحية والاسلام .

فالبدعـــة الاولى منهما ، التي ولدت في ايران موطن ماني ، انتشرت على الشواطىء الشمالية الغربية من البحر المتوسط بعد اجتيازها آسيا الصغرى وبلغاريا وايطاليا الشمالية واستقرارها في جنوبي فرنسا ، حيث تغلبت وسادت طوال قرنين متخذة الكاثارية اسماً لها . اما البدعة الثانية فانها نشأت في بغداد وامتدت منها الى حلب فدمشق فالاندلس العربية مارة بالشواطىء الجنوبية الشرقية من المتوسط . وفي جنوبي فرنسا الكاثاري شوهـــد في القرن الثاني عشر لقاء تاريخي عجيب للغة حب وهرطقة دينية هما من اصل واحد . فان الشعر العذري الذي ولد من لقاء هذين التيارين الروحيين القادمين من شاطىء البحر المتوسط ، منبع الحضارة ، قد انحدرت منه جميع آدابنا الكتابية الاوربية وجميع المفاهيم الشائعة التي تدور حول الحب ، سواء أكان في الغناء ام الكتابـــة ام طرق العيش ، وبقيت حتى ايامنا هذه .

بعد هذه الاكتشافات الاولى التي تحثّنا على متابعة الجهد ، علينا ان نتوغل في بحثنا وتدقيقنا فنتساءل : لماذا وكيف تولّد فينـــا مفهومنا للحب العذري واصبح عندنا امراً عادياً حتى لنتصور انه وجد هكذا منذ الازل وفي كل مكان ؟ قد رأينا ان له تاريخاً معيناً وأصولا واضحة ، وانه لا وجود له لا في الماضي ولا في الحاضر ، حتى ولا يمكن تصوره خارج الصعيد الذي حدده له القرآن والتوراة . فآسيا البراهمة والبوذيين لم تعرف حبنا هذا ، بل تدهش من وجود هـــذا الحب ، وتمزج دهشتها بالسخرية او الخوف . فالعلاقات الجنسية عند الهنود والصينيين وسكان مالزيا وكوريا واليابان التقليدية هي علاقات طبيعية او اجتماعية خالية من اية نفحة رومانسية او مثالية او اية حرارة زهدية . ان الحب كمـــا نفهمه منذ القرن الثاني عشر ليس له حتى اسم في لغاتهم : ففعل « احبّ » في الصينية لا يحدد سوى العلاقات بين الأم وابنهـــا . هناك الشهوة والطرق المؤدية الى اللذة الجسدية ، وقد

جمعت اصولها وقواعدهـا في كتب ككتاب «كما سوترا» ، وهناك الروابط العائلية والقواعد الزوجية ، ثم لا شيء بعد ذلك . اما ضروب الحب المثالي ، والقلق الخلقي ، والحنين ، والشعور بتبعة الاثم ، والمشاكل والوساوس التي تتغذى بها الرواية والمأساة والاوبرا عندنا ، والتي تشغل افكارنا واحلامنا واعمالنا وحتى اعترافاتنا وتراودنا في معظم اوقاتنا ، فلا يعرفها الآسيويون او يرون فيها اعمالا جنونية . فهناك في الحقيقة فيما يعود الى الحب عالمان : العالم الشرقي والعالم الغربي . وقد رأينا من الوجهة التاريخية على الاقـل ان ما جاءنا به العرب من هـذا القبيل قد اصبح جزءاً متمماً للغرب لا للشرق .

هذه الحالات الثقافية والحضارية تبدو لي بعد تحليلها الاخير مرتبطة كل الارتباط بمواقف الانسان الدينية وباختياره الأساسي لها .

فديانات الهند ، او الديانات التي نشأت في الهند والتي تسود آسيا من جنوبيهـا الى شرقيها ، هي ديانات لا تعرف إلهاً أعلى قائماً بذاته ولا كائناً بشرياً خالداً ، ولا تعرف بالتالي علاقات شخصية بين الانسان والله ، بل تعتبر الفرد شيئاً وهمياً .

جاء في احد كتبهم : « ليس الا ذات واحدة لجميع الكائنات » . اما الذات الفردية فصائرة الى التلاشي والذوبان في المطلق الذي لا اسم له عندهم ولا شكل روحٍ صافٍ . فكلما اسرعت هذه الذات في الخروج من مرحلة تجسدهـا وتجديده في المكان والزمان اسرعت في تلاشي كونها ذاتاً فردية . وهذا خير لها ، لان « الأنا » ما هي في الواقـع الا خطأ لا يمكن اصلاحه الا بفنائه النهائي بعد تلاشيه بصورة تدريجية . فكيف يمكننـا ان ندرك وان نتصور في عالم كهذا أهمية العلاقات التي تقوم بين شخص وآخر والتي يرتكز عليها الحب ؟ فاذا كانت « فكرة (الأنا) لا تدخل الا في عقول البلهاء » ، كما جاء في نصّ تيبيتيّ ، ففكرة « الأنت » لا تكون اصلح منها . واذا كان القريب شيئاً وهميـاً فلماذا نحبه ؟ في وسعنا ان نشتهيه ، وهذا امر طبيعي في خليقة موقتة غير كاملة ، لكن هذا لا يتألف منه معضلة جدية لان الهدف المنشود ابداً هو الانفصال عن كل شيء واضعاف كل ما يربطنا بغيرنا .

كل هذا يتغير من اساسه وبصورة ملموسة اذا انتقلنا الى عالم سادته وتسوده الى الأبد الديانات الابراهيمية ، المسيحية واليهودية والاسلام . فان الله في هذه الديانات هو ذات تقول : انا والانسان ذات عليها ان تجيب لان خلاصها الابدي متوقف على طبيعة جوابها .

والعلاقات الشخصية بين الله والانسان هي علاقات طاعة او عصيان او شكّ تؤدي الى تفاهم او عداء او يأس . فهي والحالة هذه علاقات فعّالة يضاف اليها في المسيحية واليهودية والصوفية علاقات عاطفية اي علاقة حب ، فاذا تمكن الشرقيون بعد الجهد من اكتناه التحديد الانجيلي : « الله روح » ، فلا يستطيعون ادراك هذا التحديد الآخر : « الله محبة » .

نستخلص من كل هذا ان الديانات الآسيوية وعواطف الحب الدنيوي عندها لا تصلح ان تكون رموزاً للمعارج الروحية ولا صورة منعكسة عنها ، بينما نرى في الديانة المسيحية مثلاً ان الزواج يصلح ان يكون رمزاً للاتحاد الروحي بين الله والمؤمنين . وقد قال القديس بولس : ايها الرجال أحبّوا نساءكم كما أحب المسيح كنيسته . هذا والنسّاك النصارى والصوفيون يشبّهون اتحاد النفس بالله بالآلام التي تعدّ الطريق الى الخلاص وبالحروق العذبة وبالانخطافات ونشوات الحب الدنيوي . وقد اقتبست القديسة تيريز دافيلا لغتها من شعراء الحب الذين نشأوا في اللانغدوك ومن روايات الفروسية التي دارت مواضيعها على ابطال المائدة المستديرة ، وكانت تجد في هذه الروايات على حدّ قولها لذة ومتعة في ايام صباها . ولا حاجة الى التوغل في الاستشهاد ، فان الاناشيد التي ترتّل في كنائسنا سواء أكانت كاثوليكية ام بروتستانتية تعرب عن تقوى المؤمنين بألفاظ عاطفية تدل على الحرارة والشوق والقسم على الاخلاص الى الابد والحنين الى الاتحاد ، اي بألفاظ الحب .

وهناك عدا ذلك اشياء كثيرة ، منها ان الحب كما تصوره الشعراء المتجولون او واضعو رواية « تريستان وايزلت » لا يتوجه الى الجسد وحده ، كما هي الحال في الغريزة الحيوانية ، ولا الى العقل وحده ، بل الى الروح والنفس معاً ، ويهدف الى تأليههما . فان كل حب يفتش في المحبوب عن انبل الاشياء فيه وادعاها الى الهيام به واحلاله أعلى المراتب ، حتى يكون هذا الحب في محله اللائق به . وعلى هذا فالحب يرفع المحب والمحبوب في وقت معاً ، كما كان يردد ذلك بلا انقطاع الشعر التروبادوري . لكن التوق الى الجزء الافضل في المحبوب ، اي الى الجزء الإلهي منه والذي يكون من الشدة بحيث نعمل حتى علي خلقه ، ما هو الا التوق الى الله من خلال مَن نحب . وقد جرؤ ابن عربي ، الصوفي الاندلسي العظيم في القرن الثاني عشر ، فرفع الحب العذري الى اقصى ما يُطمح اليه حيث قال : ان الله يتجلى في كل معشوق لعاشقه ، اذ يستحيل علينا عبادة شخص لا نتمثل الألوهية فيه ، وهكذا الحب : فمن احب لا يرى في الحبيب الا خالقه .

وابن عربي يتلاقى في كلامه هذا والوصية الاساسية في المسيحية : احب الرب الهك واحب قريبك كنفسك . فمحبة الله هي في الواقع محبته من خلال القريب ، وحب القريب هو في الواقع ان نحبه كما نحب نفوسنا . ولا بدّ من اثنين لتكوين محبة ، فكيف يحب المرء نفسه ان لم يكن هذا الحب متوجهاً الى افضل شيء فيه ، اي الى الكائن بذاته الذي تنعكس فيه صورة الالوهية والدعوة الاتية من الله ؟ فحب القريب حبنا لنفوسنا هو ان نحب منه افضله ، اي « ملاكه » .

وهناك ميزة اخيرة اساسية يتميز بها الاسلام والمسيحية عن الديانات الشرقية (الهندية والصينية واليابانية) ، هذه الديانات التي تدين جميعها للمطلق المعدوم الذات ولا ذكر عندها للملائكة ، بينما فارس القديمة ، موطن زردشت ، وديانات الشوق الادنى والمسيحية ترى في الملاك كائنا وسطا بين الله والانسان ، يمثّل في المحبوب الجزء الالهي منه واليه يتجه الحب الكامل ، وهو ما يسميه النساك « الاسم الالهي » وما يبقى من الانسان بعد موته . وعندما يقول الحبيب لحبيبه « يا ملاكي » فانه يردد عبارة شائعة لا يدري في الغالب ما يعني بها انما يقول شيئاً هو حقيقة كلّ حب .

هكذا ولد الحب ــ الهوى واظهر نفسه ونما حيث تمكن الناس من ان يروا فيه رمزا وصورة للروابط بين النفس وخالقها . وقد شجبه التعليم القويم في دياناتنا لانه ادرك ان هذا النوع الجديد من الهوى سيطيح بالحرمات التي تكرّسها الخلقيّة والعقل . ولكن اذا صحّ ان الهرطقة تزول بزوال التعليم القويم ، يصحّ ايضا ان الهوى يستقي من الينابيع نفسها التي تستقي منها دياناتنا ، وانه يُقضى عليه بالتلاشي بمقدار ما تكفّ هذه الديانات عن انعاشه وعن مكافحته وبمقدار ما يكفّ عن مكافحتها ؛ اي ان الخطر الذي يهدد اهواءنا هو كامن في ثقافة لا تبالي باية ديانة كانت ، فمثل هذه الثقافة قمينة بان تنضب الينابيع التي تستقي منها الاهواء .

هذه هي الاصول التاريخية لمفاهيمنا للحب، وهذي هي البيئة الدينية الفسيحة التي اتاحت لها الظهور والتي بدونها لا نتمكن من ادراك الاسباب التي حالت في آسيا دون معرفة هذه الظاهرة التي حملها الشعراء العرب الى اوربا فكانت لها ميزة لازبة . اما وقد عرفنا ذلك فلننظر الآن كيف تطور الحب على مرّ العصور من القرن الثاني عشر حتى ايامنا هذه .

اول ما تبينت فادهشني هو ان حب الهوى قد اطلق في اوربا وحدها دون سواها كل طاقاته ، سواء أكان في ضروب الحضارة ام في ضروب الفوضى ، وانه بات طوال قرون عديدة معين الالهام الاكبر للشعر والرواية والمسرح والموسيقى ، واصبح عدا ذلك المشكلة الرئيسية في خلقية الافراد والجماعات ، واحتل حقول الحضارة على اختلافها وتفاوتها ، فزوّد النسك بلغته وفن الحرب بقواعده كما سنرى فيما يلي . كل ذلك في اوربا دون سواها ، فكيف نحل هذا اللغز الجديد ؟

اجيب عن هذا ببساطة كلية فاقول : ان الاهواء لا تعمق ولا تفجر طاقاتها الا بمقدار ما تلقى من المقاومة . وكان ان اوربا الكاثوليكية والشمالية قد ابدت اشد المقاومة واثبتها واعمقها في مجابهة انطلاق الكورتيزية ، اي الشعر العذري الذي ولد على ضفاف البحر المتوسط العربي واللاتيني حيث الجو اشد صفاء والعادات اشد تحررا واللذة اكثر شهوانية وبراءة في وقت معا .

قد رأينا ان الحب العذري في الشعر التروبادوري يتميز عن الميل الجنسي باناقة تعابيره ورهافة عواطفه واحترامه للمرأة احتراما يكاد يكون دينيا ورفعها الى مرتبة عالية والتشكي من انها باتت حيث لا وصول اليها . وكل هذا نلمسه في « الاميرة البعيدة » لجوفره روديل . ان الحب عن بعد ، والاشادة بالعفة ، والشرائع التي يتمشى عليها هذا الحب ، وقواعد الفروسية ، تفرض جميعها ضبط الغرائز وابتعاد المحبين بعضهم عن بعض ، مما يتيح للحب ان يتعالى وينقلب الى هوى .

هذه الميزة الاساسية ، اي ضبط الغرائز وقهرها ، قد بدت في شكلها الاكثر وضوحا والاشد تأثيرا عندما اعرب الحب العذري عن نفسه في روايات ظهرت في فرنسا الشمالية البريتانية والنورماندية . وكانت الصلة الحية بين الشعراء المتجولين وواضعي رواية تريستان ، امرأة على غاية من النبل ، متينة الخلق ، قامت بدور رئيسي في تاريخ الافكار والعادات في اوربا ، هي اليونور داكيتين الشهيرة ، حفيدة الشاعر التروبادوري الاول غيوم ده بواتييه ، وزجة ملك فرنسا لويس السابع الذي صحبته الى الشرق في الحملة الصليبية الثانية ثم تزوجها ملك انكلترا هنري الثاني ، وهي اخيراً امّ ريكاردوس قلب الاسد ، وهناك ايضا الكونتسة ماري ده شامباني التي اشتهرت « ببلاط الحب » الذي انشأته وحمايتها للشاعر كريتيان ده تروا الذي اتخذها عروسة لشعره . فهذه الكتلة الرائعة من النبلاء والعباقرة قد كانت البيئة المؤاتية التي ولدت فيها حلقة الروايات البريتانية

(نسبـــة الى بريتانيا الفرنسية) التي خلقت شخصيات الملك آرثر ولانسلوت وبرسيفال وتريستان .

ان اسطورة « تريستان وايزلت » كانت ولا تزال المثل الاعلى الباقي على كرور الدهر للحب – الهوى الذي ابتدعه الشعر في جنوبي فرنسا ، لكن ما لبث ان انتقل الى بريطانيا وايرلندا وبلاد الكورنوال التي هي اقسى مناخا واشد قتامة من شطآن البحر المتوسط . وقد خلصت من تحليلاتي لهذه الرواية التي بلغت الحد الاقصى في نوعها الى القول : بان الهوى يتغذّى بما يعترضه من العقبات حتى انـــه ليختلقها عند الحاجة اليها .

فاز تريستان ، بعد كفاح مرّ ، بالاميرة ايزلت وكان بوسعه الاحتفاظ بها لكنه تنازل عنها لمليكه مارك اخلاصا له ، فتزوجها الملك ، غير ان المحبين قـــد عادا الى ما كان بينهما من تواصل ، ففوجئا يوما في حالة مريبة ، فطردا واختبـــأا في احدى الغابات حيث لا شيء يحول دون رغائبهما ، لكن تريستان طرح بينه وبين الملكة « سيف العفة » ، فخلق بذلك حاجزا يتيح لهما البقاء على الهوى . وبعد ثلاث سنوات قضياها في منفاهما اعاد تريستان ايزلت الى الملك ، فكان هذا الفراق حاجزا جديدا قد اختاره عن عمد ليذكي نار هواه ، لكن الهوى قد تغلب في النهاية على جميع العقبات التي تعترض الحياة ، كالاخلاق والحق الزوجي وحـــق المتبوع على التابع والهجر الجسدي والغيرة ، ولم يبق الا الموت الحاجز الاقصى ، فاكتشفه الحبيبان واجتازاه ، فجعل من حبهما امرا عجيبا فائقا وخلده .

لولا العوائق لما كان الهوى ، كما انه لا تاريخ للشعوب السعيدة ؛ واذا سعد الزوجان فما من مادة لكتابة روايـــة عنهما . وعليه يكون تاريخ الحب في اوربا تاريخ الحواجز والكوارث التي عاناها هذا الحب والتي فضّلها على الطمأنينة والسعادة الهادئة .

والحال ان هذا التاريخ يبدأ بكارثة . ففي اوائل القرن الثالث عشر قامت حملة صليبية على الالبيجوازيين سحقت فيها حضارة الشعر التروبادوري ، فكانت اولى بوادر المقاومة الضارية التي اخذت اوربا الشمالية والكنيسة الكاثوليكية تجابه بها الهرطقة المغرية الفاتنة التي يمثلها الحب الجديد . لكن من المحرقات التي اضرمت نارها محاكم التفتيش ، تطايرت شرارت وابعدت ، ناشرة في جميع الاقطار الاوربية مثالية الحب العذري وتيار الهرطقة الدينية التي يسرت له ولادته . فلولا تلك الحملة الدامية لما فاز هذا الحب في اوربا بالنفوذ العجيب الذي نعم وينعم به حتى ايامنا هذه . ولولا تلك الحملة لنضب معينه في هـــدوء وسكينة ، كما نضب في ايطاليا الجنوبية وفي صقلية منذ القرن الثالث عشر ، وفي العالم

العربي حيث تأججت ناره زمنا ثم خمدت بعد قرن او قرنين .

المحاور التي ساعدت على نشر الحب العذري ونشر شعره وموسيقاه ، يقابلها في اوربا المحاور التي ساعدت على نشر الهرطقات ، وهي ايطاليا الشمالية ونوماندیا الفرنسية وانكلترا والفلاندر وريتانيا وهنغاريا وبوهيميا وحتى روسيا ، حيث عرفت اسطورة تريستان منذ القرن الخامس عشر . وفي جميع هذه البلدان كافحت الكنيسة والسلطات العمومية الهرطقة وتنكرت لادب الحب الذي اعتبرته بصواب ادبا هداما مغايرا للاخلاق ولسر الزواج . لكن هذه الهرطقات كانت تتكاثر كلما كوفحت ، وتتغلغل في اعماق نفسية النخبة الاوربية . حتى ان الادب الكتابي في اوربا قد اعتنق بجملته الاسلوب التروبادوري وسمّى دانته ورفقاوءه نفوسهم « بالاوفياء للحب » . وكان دانته عدا ذلك تلميذا في شعره للشعراء البروفانسيين . وتأثر نساك رينانيا والفلاندر وايطاليا ثم اسبانيا ، من حيث لا يدرون ، تأثرا عظيما بالمانوية الكاثارية ، فتعرضوا من جراء ذلك لعقوبات شتّى انزلتها بهم السلطات الدينية . وطبقت عدا ذلك القواعد المرعية في الحب العذري على « منظمات الفروسية » ، فحولت اصول الفن الحربي من حال الى حال : فالمباريات العسكرية التي كانت تجري في الاعياد والتي كان الرهان فيها « حب سيدة » اصبحت نموذجا سصطلحا عليه في المواقع التي تصف فيها الجنود صفوفا مواجهة لصفوف الاعداء . فاذا عرفنا ذلك اصبح من السهل علينا ان نجد مطابقة مستمرة بين اسلوب الحروب في اوربا واسلوب الحب في الزمن الذي تقع فيه تلك الحروب : فالحب العذري يقابله البراز والمباريات الجماعية، والحب العادي الخالي من الهوى تقابله « حرب الدانتيل » في القرن الثامن عشر ، والهوى الجامح الذي هاجته الرومانسية تقابله المعارك الثورية التي اضطلع بها بونابرت والحروب القومية في القرن التاسع عشر . وتظل هذه المطابقة صحيحة حتى القرن العشرين ، عندما اصبحت الحرب شاملة ليس لها ما يقابلها في اصول الحب ، وقد تكون هذه الحرب قاضية على عصر من عصور ثقافتنا .

من القرن الثاني عشر حتى القرن العشرين رأينا التقلبات تتوالى على صراع لا يزال يتجدد بين دين « الاوفياء للحب » وتعاليم الكنائس القويمة ، بين خلقية الهوى الفردي وخلقية الجماعات في الدولة ، بين الرومانسية الدائمة ومقتضيات النظام الاجتماعي . ولا يسعني الآن الا الاستشهاد بجزء قليل من هذه التقلبات اوضح به الطرق التي اتبعها الجانبان المتضادان في عدائهما : في كل مرة يخلق المجتمع حواجز جديدة دون فوضى الاهواء ينشط دين الحب

ويستعيد قوته ويخترع وسائل جديدة للتعبير عن نفسه ولبثّ جراثيمه . فعندما تنظمت فرنسا ، وهي المثال الذي تقتدي به اوربا ، تنظيما متينا على عهد لويس الرابع عشر وقاومت الفوضى مقاومة شديدة وكادت الدولة تكون السلطان المطلق حتى في المعتقدات الدينية وفي الثقافة ، اختلق الهوى وسائل للاعراب عن نفسه في صيغ تمتّ الى الكلاسيكية ، وكان من وسائله المسرح الذي هو اجتماعي الى اقصى حد ، فاخرج « اندروماك » و « بيرينيس » « وفيدر » ؛ وهذه المسرحيات لا تنحدر من الآداب القديمة التي يدعي راسين انه استلهمها ، بل من الحب العذري والهوى القاتل الذي عاناه تريستان والذي اصبح نموذج الشعور المعتاد في اوربا .

وفي القرن الثامن عشر تنعكس الآية ، اذ يضعف الهوى بزوال الحواجز الاجتماعية والاخلاقية ، فتحتل عندئذ شخصية دون جوان المسرح وتفوز بالنجاح بفضل اوبرا موزار . والحال ان دون جوان هو نقيض تريستان ، وهو بجملته صورة سلبية له ، فانه الخائن في الحب والرجل الذي لا يعقب لقاءه لقاء غيره بينما كان تريستان رجل حب واحد قاتل . ودون جوان يخلّ بجميع قواعد الهوى ، ويصبح بطل عصر خلاعي لا يبالي بالقيم الروحية وبالتالي يعجز عن تجشّم الهوى . في هذا العصر ظهر روسو « المزعج » وهو الرجل الوحيد الذي كره ما تمشى عليه عصره من العادات والاخلاق ، واحيا الحب ـ الهوى في موضوع رواية « ايلويز الجديدة » . وما عنوانها سوى تلميح الى ما قاسى ابيلار من تباريح الهوى ، وقد يكون ابيلار شخصا مثاليا من اشخاص اسطورة تريستان .

وروسو هو الذي بدأ الانتقام للهوى وبشّر بالرومانسية ، هذا الاسم الجديد الدالّ على مصدرها العريق في القدم . فان لفظة الرومانسية مشتقة من « رومان » ، واول رواية اطلق عليها لفظة « رومان » هي رواية تريستان : دُعيت بهذا الاسم لانها استلهمت من شعراء اللانغدوك وكان هؤلاء الشعراء ينظمون باللغة الرومانية .

والرومانسية رجعة الى دين « الاوفياء للحب » في اشكاله الاشد فوضوية وتهديما ، سواء أكان في حقول الخلقية والسياسة والديانة ام في حقول الفنون والآداب . وذلك لان الحاجز الذي ثارت عليه الرومانسية وعبأت له قوى النفس هو الحاجز ذاته الذي رفع في كل مكان للتحصن دون الرومانسية في مجتمع القرن التاسع عشر ، ألا وهو النظام البورجوازي القائم على سيطرة مادية جديدة وعلى جور خلقية نفعية جديدة وقواعد

جديدة للدفاع عن الحرمات . وفي هذا العصر تبـــدأ ايضا سيطرة الجموع على الافراد ، وسيطرة التوقيت للعمل في ساعات محددة ، وسيطرة الآلية في ابشع مظاهرها . فعلى كل هذا تمردت الرومانسية وراحـــة تطالب بحقوق الهوى التي تتوافق وحقوق الحريـــة . فاكتشف الشعراء الالمان من جديد اسرار الهوى العذري وغنّوا الليل والهوى القاتل ، وعاد الروائيون الانكليز من جراء ما لاقوا من الضغط في العصر الفيكتوري الى وصف التباريح والآلام التي يعانيها المحبون في حبهم البعيد المنال وما يلاقون فيه مع ذلك من الغبطة والسعادة ، وجرؤت اخيرا الموسيقى ان تبوح بما تبقى من اسرار الهوى في اوبرا تريستان التي وضعها فاغنر واعرب فيها عن اكتمال الحب بالموت وعن انخطاف الحبيبين واغتباطهما باتحاد روحيهما وعن « الفرح الاعلى »الذي شعرت به ايزلت في احتضارها . فكل هذا هو اقصى ما يكون من التحدي للخلقية النفعية التي لا آفاق لها والتي سادت عصر البورجوازية .

ان تطوّر الهوى ، كما رسمته بخطوط عريضة ، يمتزج تاريخيا بتطور العادات ومجرى الحياة الاوربية ، واني ارى فيه مفتاح ما غمض منها .

فالى اي شيء قادنا هذا التطور في القرن العشرين ؟ وما هي التقلبات الجديدة التي نتوقع حدوثها في الصراع المستمر بين الهوى والمجتمع الغربي ؟ وهل انقرض عهـــد الحب العاطفي ام نتوقع مستقبلا له ؟

الخلقية البورجوازية هي الآن في معترك انحطاطها ،وحرماتها باتت على وشك الانهيار. وقد اضطر فرويد وجميع علماء النفس الى اعتماد الفكرة السائدة في سواد الشعب والقائلة بان كبت الغريزة الجنسية هو اشد خطرا على المجتمع وعلى الافراد من اطلاق الحرية لها . وعلى اثر ذلك تراخت مبادىء التربية خوف خلق « العقـــد » في الاحداث باخضاعهم لانظمة صارمة. وتقهقرت المراقبةعلى المنشورات تقهقرا بيّنا، لعلمها ان منعها اي كتاب اشتهر بخلاعيته يكون له هذا المنع دعاية مجانية عجيبة تفوق كل دعاية .وانتشرت الحوافز الشهوانية بملء الحرية في الشوارع على اعمدة الاعلانات وفي الاماكن المعدة في الصحف والمجلات للدعاية وفي الآداب الكتابية وفي الافلام ، مما يحملنا على التشاؤم بمستقبل الحب والهوى .

لان الهوى ، كما قلت وردّدت ، ليس هو بحاجـــة الى الحواجز وضروب الضغط فحسب ، بل هو بحاجة ايضا الى اوقات فراغ واسرار ومسافات تفصل بين المحبين ، والى بيئة روحية والى ايمان قلق متطلع الى عالم حقيقي يكون وراء هذا العالم المرئي والملموس ، الى عالم النفس ، الى عالم العاطفة والمحبة . وهو لا يرى حوله الآن الا حضارة تقنية علمية صحية محدودة لا تعنى الا بالجسد والعقل وتهمل الروح . صحيح ان هذه التقنية تعدنا باوقات فراغ وتترك لنا متسعا للتثقف : وهذا ما يبعث فينا املا جديدا ، غير ان الثقافة الحية الخلاقة لا بـــد لها من افق روحاني ومن نخبة تتنكر باسم حقيقة بديهية او حقيقة ايمان ، لما نتمشى عليه من طرق العيش . والحال ان مفهومنا للعالم لا يدع مجالا لفكرة تتطلع الى ما وراءه ، فالعالم في مفهومنا الآن كون مؤلف من فراغ ، كل ما يشمل عليه من مادة يمكن حصره في كشتبان . غير انه في الوقت نفسه ينبئنا باننـــا قادمون على زمن يتكاثر فيـــه الناس تكاثرا عظيما ويصبحون من الكثافة بحيث تستحيل الحياة معها . ولا نبعد ، فمنـذ الآن يحتشد الناس في المدن حشدا تتلاشى به الابعاد بين شخص وآخر ، ويبشرنا العلماء بان سكان عالمنا سيتضاعفون في خلال ثلاثين او اربعين سنة ، وان عددهم اذا بقينا على هذا النحو من التكاثر سيبلغ في سنة ٢٢٦٠ سبعماية مليار وفقا لتقديرات الاحصائيين ، فلا يكون عندئذ بين الانسان والانسان الا مسافة عشرة امتار ؛ ويبقى لكل انسان متر مربع في سنة ٢٤٠٠ ، وبعد مائة سنة او دونها يتلاصق الناس بعضهم ببعض. تبدو هذه الارقام ضربا من العبث : لكن لم يجد احد ما يحول دون تحقيقها ، ولو فرضنـــا ان من الممكن ايجاد وسائل لوقف هذا الكابوس العددي وتخيلنا حالة العالم عند انتهاء القرن العشرين ، اي في اجل قريب منا لان من يولد اليوم يكون دون الاربعين من عمره ، فماذا نتوقع ان نرى ؟ سوف نرى اناسا متلازّين ، لا اسرار ولا مسافات بينهم ، قدروا معيشتهم على مقدار انتاجهم ، ولا تشغل بالهم اية معضلة شخصية .

فاذا كان الامر كذلك قضي على الهوى وتمشينا الى مجتمع خلو من المفاجآت والمآسي ، لا تاريخ له ، منضبطٍ ، منظمٍ ، خاضعٍ لطريقة عيش محددة ، محصّن دون كل عاهة او مرض ، يفحص فيه الفرد باستمرار فحصاً طبياً ويعاد الى حالته الطبيعية بتبديل قطعة كما تُبدّل قطع السيارات .

هذا ما لا مناص منه اذا تحقق ما يقوله علماء الاحصاء والاجتماع . بيد اني لا أثق بقولهم ولا يسعني ان اثق به ، فان مجتمعاً كهذا يقودنا حتماً الى سأم شامل لا بد من ان يبعث فينا تعطّشا الى شيء وراء كل هذا وان يهيج الفكر الى ثورات تخلق حرية جديدة .

كان المجتمع السوفياتي على عهد ستالين يتمشى الى مثل هذا الكابوس ، اما اليوم فأرى ان الشبيبة الروسية قد عادت الى كتابة الكتب الهدامة وحتى الى كتابة روايات حب همجي. وكذلك الحال في امريكا .

اعتقد ان الهوى الذي تغذيه الحواجز سيجد هو وحده لخيره ولخيرنا جميعاً وسائل لا ندرك الآن ما هي ، يتمكن بها من الحؤول دون هذا التكاثر الحيواني في الجنس البشري. كان الحب التروبادوري يتنكر للروابط التي لا يُقصد منها سوى القيام بواجب الايلاد ، ويعمل بطريقة غير مباشرة على بث مبادىء الهرطقة الكاثارية ؛ فابتكر حباً يكاد يكون عفيفاً لكنه لا يتطلب زهداً يفوق طاقة الانسان ، فحكموا عليه بأنه مخالف للمبادىء الاجتماعية واسلموا الى الموت كل من رفض ان يزيد في عدد الاحياء . ولا عجب ان نرى في القريب العاجل على صدور من يعتنقون هذا الحب اوسمة يقلدونها بمقتضى المبادىء نفسها . لا شك في ان الكنيسة ستمانع في ذلك . انا لا اتخذ موقفاً في مثل هذه القضايا ، غير انه يبدو لي ان مثل هذه الوسائل القمينة بوقف تكاثر الجنس البشري لتفضل بكثير حرباً ذرية او سلسلة من الاوبئة تذهب بعدد عظيم من الناس .

لكن ما لنا ولهذه التأملات النظرية ؟ الحب امر روحاني لا يخضع للاحصاءات كما انه لا يخضع للغريزة ، فما دام في العالم اناس اهل لان يدعوا بهذا الاسم ، يفتشون عن معنى لحياتهم ويكونون متأهبين في سبيلها للتضحية بأية طمأنينة تضمنها لهم الدولة او اية منظمة عالمية مقابل شيء من روحهم مهما قلّ ، فلا خوف على الحب ، فانه باق ابد .

في القرن الثاني عشر كان ابن حزم ، الشاعر الاندلسي الكبير ، يقول : الحب مرض عضال ، دواؤه منه ؛ هو حالة لذيذة ، وداء نشتهيه ؛ فمن نجا منه ودّ لو يصيبه ، ومن ابتلي به وشفي منه لا يجد لذة في شفائه .

اعتقد ان القرن الثاني عشر قد خلق ، عندما اخترع الحب ، هذا المرض المفضّل على كل ثراء ، شيئاً لا يبور ابداً ، بل شيئاً قادراً بفضل بعض الروحانيين الذين هم ملح الارض ، على خلق وسائل تضمن خلوده لخير بعض الناس على الاقلّ .